



منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

من روائع الأنبا غريغوريوس

(١٩)

أَسْئَلَةُ ثَلَاثَةِ تَفْتَقِدُ إِلَى إِجَابَاتِ



مه أنا؟
لماذا أنا هنا؟
وماذا بعد هذا؟

للمنتبح
الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراستات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحت العلمي

الكتاب: أسئلة ثلاثة تفتقر إلى إجابات

المؤلف: المتنيح الأنبا غريغوريوس .

إعداد : الإكليريكي منير عطيه .

الجمع والناشر: مكتبة المتنيح الأنبا غريغوريوس

٢١٦ش . رمسيس - شقة ٨ - ت : ٤٨٣٣٣٦٣

الغلاف : شركة فاين للطباعة والتوريدات- ت: ٤٨٢٠٩٠٣

المطبعة: شركة الطباعة المصرية- العبور- ت: ٦١٠٠٥٨٩

رقم الإيداع بدار الكتب : ٣٣٤٥ / ٢٠٠٥ .

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف والناشر

فهرس الموضوعات

صفحة

الموضوع

٥ أسئلة ثلاثة تفتقر إلى إجابات
١٩ من أكون أنا ؟
٢٢ من أنا ؟
٢٥ لماذا أنا هنا فى هذه الحياة الدنيا ؟
٢٩ وماذا بعد هذا ؟

أسئلة ثلاثة تفتقر إلى إجابات

من أنا ؟ لماذا أنا هنا ؟ وماذا بعد هذا ؟

الإنسان ذلك الكائن الجسداني والروحاني معاً، امتدت معرفته وشملت الأرض والبحر ومافيهما من كائنات وموجودات ، وارتفع فوق الأرض إلى السماء ، وكشف ما فيها من أجواء ، ، ، وحلق في الفضاء ، ونزل على القمر وسافر في الفضاء البعيد ليستكشف الكواكب الأخرى ، ومنها المريخ والزهرة ، ، ولن تقف رغبته في المعرفة عند حد ، فأشواقه نحو المعرفة عارمة ، وهي التي تدفعه إلى البحث والإستقصاء ، ومن ثم إلى الإكتشاف ، فيسعد بما يكشف ومايعرف ، فتتفتح شهيته إلى مزيد من الإكتشاف إرضاءً لرغبته في المعرفة ، وإشباعاً لميله الدافق إلى سبر أغوار الوجود .

إنه يدرك بإحساس عميق أنه كائن غريب في هذا الكون ، وأنه قادم من عالم آخر، في رحلة يعود بعدها إلى وطنه الحقيقي ، وهي إذن رحلة قصيرة مهما طال . فليستكشف الوجود من حوله ليعرف مقامه فيه، ونسبته إلى هذا الوجود، إذ كيف يعود إلى عالمه الذي نزل منه قبل أن يكتشف العالم الذي نزل إليه بالميلاد .

على أنه من لهفته لمعرفة ماهو خارج نفسه ، نسى
نفسه أو غفل عنها ، وشدته شواغل الحياة ، وجذبت أنظاره
مغرياتها ، واستحوذت على قلبه اهتماماتها ، فلم يعد يجد
وقتا، ولا دافعا ، لإستكشاف نفسه ، بل لعله صار راغبا في
أن يهرب من نفسه ، ويبعد عن ذاته ، حتى لا يحرم من
الإستمتاع بما حوله من مثيرات أصبح يراها جميلة،
وجديرة بأن ينصب عليها ويغترف منها ، ما وسعه ذلك ،
بل أمسى يخاف من نفسه، إذا انتبه إليها ، أن تمنعه أو تصده
أو تحدّ من تكالبه على الأخذ بما في الحياة من حوله، من
إمتاع ولذات . وزادت رغبته في الإنهماك في شواغله
وشهواته الجسدية والمادية والحسية ، ومعها خوفه من نفسه
، فصار يبتدع بذكائه وسائل تلهيه عن نفسه ، وهو ما يعرف
بالملاهي ، وأمسى يبرر لنفسه الأخذ بنصيبه من الملاهي
علاجاً لأمراضه وتخفيفا لمتاعبه ، وإن كان يعلم في أعماق
أعماق نفسه أنه صار بها يتلهى عن نفسه هربا من نفسه .
وعلى الرغم من أن هذه الحال هي حال الأغلبية
العظمى من الناس الذين صاروا مشغولين عن ذواتهم ،
فهناك قلة قليلة أدركت وتذكر أنّ من الظلم لنفسها أن تملك
عليها الشواغل مايبعدها عن الدخول في أعماق النفس
البشرية ، وهي تدين نفسها على إنسحابها إلى العالم
الخارجي بعيداً عن ذاتها ، وهي كلما أصغت إلى ذاتها
وجدت نداء في أعماقها يصرخ فيها ويدعوها إلى الإجابة

على أسئلة حائرة تنتظر الجواب. ولن يصمت هذا النداء قبل أن يجد من النفس ذاتها الإهتمام بأن تكتشف هي ذاتها الإجابة المقنعة المريحة للأسئلة الباحثة عن الجواب .

هذه القلة القليلة من الناس ، التي لاتجد في العالم الخارجى شعبها الحقيقى ، على الرغم من وجودها فيه ، وأخذها ببعض أسبابه . . . والتي تجد فى أعماقها نداء يصرخ فيها يطلب الجواب . . . هذه القلة القليلة غير القانعة بشواغل الحياة وجاذبياتها الخارجية ، ولا راحة لها حتى تدخل إلى داخل النفس ، مستجيبة لندائها . . . هم الحكماء على الحقيقة .
والحكماء هم الذين عرفوا أن يحكموا أنفسهم وظروفهم ، وقد أمسكوا بزمام شئونهم ، فلا يدعون الظروف هي التي تحكمهم ، ولا يسمحون لعجلة القيادة أن تفلت من أيديهم ، لأنهم يؤمنون بأنهم كائنات مرسله من عالم آخر فى رحلة يعودون بعدها ليقدموا لخالقهم تقريراً عما صنعوا وما أنجزوا من خير لبناء نفوسهم وخدمة الأغيار فى ملكوت الله الذى خلقهم على صورته ومثاله ليحققوا فى الوجود ، الخير والحق والجمال . فما هو سيدهم وخالقهم صانع الخيرات ، يعمل ولايتوقف عن العمل (يوحنا ٥ : ١٧) وهم أيضا على نظيره خلقوا للعمل ولتحقيق الخير والحق والجمال .

هؤلاء الحكماء لا يتجاهلون الأسئلة التي يجدونها فى أنفسهم حائرة تفتقر إلى الجواب . ولا يهربون من أنفسهم ،

ولا يجرون وراء جاذبيات تشدهم بعيدا عن ذواتهم ، وإنما أدركوا ويدركون أن مهمتهم فى الدنيا مهمة جدّ لاهزل ، ولذلك يستبعدون من طريقهم كل ما يعوقهم عن تحقيق غايتهم من وجودهم فى هذه الحياة ، وما يغيرهم عن العمل الدؤوب للتحقق بأهدافهم الجادة غير الهائلة .

هؤلاء الحكماء ، لا يزعمون أنهم حكماء ، إنما غيرهم من الناس هم الذين سموهم بالحكماء بالقياس إلى غيرهم من الناس الذين تسيبوا ولم يلتزموا بالقيم والمبادئ ، وجرروا لاهثين وراء بهرج الحياة وزخرفها ، وبهرتهم الدنيا بشواغلها .

فسقراط وصفوه بالحكيم، فتواضع ، عن إدراك حقيقى لنفسه ، وقال : لست أنا حكيمًا ، ولم أبلغ بعد إلى ما أصبو إليه من الحكمة . لكنى لا أنكر على نفسى أنى (محبٌ للحكمة) فأنا فيلسوف Φιλόσοφος ، ومن بعد سقراط جاء أمثاله محبون للحكمة أو هم الفلاسفة .

وقالوا لسقراط أنت عالم، فقال لمحدثه : أنا لا أجرؤ على أن أقبل وصفى بأننى عالم . . . لا ، يا صديقى ، لست أنا بعالم . . . أنا مثلك جاهل ، وكل الفرق بينى وبينك ، أننى (عالم) بأننى جاهل .

هؤلاء الحكماء أو الفلاسفة دخلوا إلى ذواتهم بعض الدخول ، فأدركوا حقيقة جهلهم ، وأدركوا أنهم بحاجة إلى أن ينسحبوا عن العالم الخارجى إلى دواخل نفوسهم لعلمهم

يفهمون ذواتهم على حقيقتها، ولعلمهم يكتشفون الإجابة على الأسئلة التي يجدونها في أعماقهم ، تصرخ وتطلب الجواب المريح .

ولكن هناك فريقا من الناس كانوا أكثر جراءة من غيرهم، فقالوا إن الأمر يقتضى ، لا أن نعطي لذواتنا بعض الوقت نستبطنها ونستكملها ، ونجيب على أسئلتها ، إنما الإنصاف لنفوسنا يقتضينا أن نعطي وقتا أكبر، وإهتماما أعظم مما أعطاه بعض الفلاسفة وبعض الحكماء
وهؤلاء هم الذين يسمونهم بالرهبان

فالرهبة في صميمها فلسفة إنسانية عالية ، بل لعلها أعظم فلسفة إنسانية ، هدفها الأكبر بناء النفس الإنسانية وتنميتها وتكملها بالفضائل ، في سلم صاعد إلى الكمال الإلهي ، قال المسيح له المجد : (فكونوا إذن كاملين كما أن أباكم الذى فى السماوات كامل) (متى ٥ : ٤٨) ، (١. كورنثوس ٢ : ٦) ، (فيلبى ٣ : ١٥) ، (كولوسى ١ : ٢٨) ، (٤ : ١٢) ، (يعقوب ١ : ٤) ، (التكوين ١٧ : ١) .

ولاسبيل إلى البناء والتنمية إلا على أساس واضح وسليم .

والأساس فى بناء النفس وتنميتها هو معرفة الإنسان لنفسه على حقيقتها معرفة صحيحة غير خادعة أو مخدوعة .

ولكى يعرف الإنسان نفسه على حقيقتها لابد له من أن يدخل إلى أعماق نفسه، يستبطنها فيعرف مافيه من ضعف ومافيه من قوة ، وما فيها من خير ومن شر . وهذا كله يحتاج إلى اهتمام وإلى وقت وإلى جهد وإلى صدق .

وعندما يستبطن الإنسان نفسه يعرفها على حقيقتها، بدخوله إلى أعماقها ، وإمتحان نفسه ، ثم يعطى لنفسه فرصة لتتكلم هي ، وهو يُنصت وفي الصمت وتسكين الحواس تتكلم النفس وفي الصمت وتسكين الحواس واستبعاد الشواغل والأفكار الطفيلية ، تشرق في النفس المعرفة .

* * *

والمعرفة في هذا المجال هي :

معرفة تنبثق في النفس بفعل الإشراق من قبل الروح القدس ، روح الله ، الذي عندما تنتهياً له النفس بالسكون والصمت والتأمل ، والتركيز العقلي ، يحدث الإشعال فالإشتعال ، كما يحدث مع الشمس إذا سقطت أشعتها على عدسة صغيرة عندما تكون العدسة في وضع ساكن تستقبل في تركيز أشعة الشمس الساقطة في بورتها .
وعندما يتم الإشراق ، تحدث الإستنارة الباطنية فترى النفس ذاتها على حقيقتها في غير غموض . . . رؤية نقية خالصة بلا ظلال تفسدها ، أو تحجبها .

ومن هنا يبدأ الإنسان الساعي نحو الكمال يعرف طريقه في تصحيح مسار حياته، بعد أن اكتشف عيوبه وأخطائه ، كما أنه بالتأمل والإستبطان يعرف مآلديه من مواهب وإمكانات يمكن بصقلها أن تتولد منها قدرات تحقق له المعجزات .

هنا أيضا تستيقظ في قلبه أسئلة الحكمة التي كان يكتُمها ولا يصيح بسمعه إليها ، عندما كانت تناديه أحيانا في لحظة صفاء ، فكان يهرب منها ويتلهى عنها ، ويصمّ أذنيه عن سماعها

هذه الأسئلة هي أسئلة الحكمة التي يجدها كل إنسان حاضرة عنده ، تلحُّ عليه أن يجد لها جواباً ، ولكن ليس كل الناس يهتمون بها، إنما قلة قليلة من الناس هم الذين يعيرونها إهتماماً

* * *

ولعلّ أهم هذه الأسئلة ثلاثة :

السؤال الأول : من أكون أنا ؟

السؤال الثاني : لماذا أنا هنا في الحياة الدنيا ؟

السؤال الثالث : وماذا بعد هذا ؟

تلك الأسئلة واردة في ضمير كل إنسان ، وهي أسئلة يجدها حتى الطفل الصغير في نفسه ، ويسأل نفسه فيها، ويسأل أبويه فيها عندما يكبر . . . فإذا أصبح شاباً حاول أن يجد لها جواباً فيما يسمعه من المعلمين ، وفيما يقرأه من

كتب، وفيما يحضره من ندوات ومحاضرات ، وفيما يتوافر له من قراءات .

وقد كتب أحد الأدباء في بلاد الغرب رواية طويلة عن شاب غربي أفلقته هذه الأسئلة الثلاثة ، وصارت تلح عليه أن يجد لها جواباً ، فسأل عنها فلم يجد عند من سألهم جواباً شافياً ، ثم اختلف إلى المكتبات يقرأ الكتب فلم يجد في كل ماقرأ مايريح عقله وقلبه . . . ولما تعب في البحث، إلتقى برجل حكيم ابتسم في وجهه وقال له : لن تجد يا ولدي في كل بلاد الغرب جواباً شافياً لأسئلتك هذه ، فنصحتني إليك إذا كنت مُصرّاً على مثل هذا البحث أن تذهب إلى الشرق .

وكان شوق الشاب إلى المعرفة جارفاً فعمل بنصيحة الرجل ، وشرع في رحلة إلى الشرق ، وقد كلفته هذه الرحلة ، أن يفسخ عقد الخطبة بينه وبين خطيبته التي وجدت فيه إنساناً مختلفاً عنها ، ومشغولاً عن سعادة الحياة الزوجية ، فرحبت بفسخ الخطوبة .

أما الشاب فذهب بعيداً ، وحط رحاله في بلاد الهند، فقصد في الهند أحد الأديرة على أحد الجبال النائية ، ووجد فيه أناساً عزلوا أنفسهم عن الناس ، فتقدم إلى الراهب الرئيس وسأله أسئلته ، وأبان له كيف أنّ إهتمامه بأن يجد لأسئلته جواباً اضطره أن يغادر بلاده في الغرب ويقطع ألوف الأميال ويأتى إلى بلاد الشرق الأقصى في سبيل أن

يُجد جواباً شافياً عن أسئلته ، بناءً على نصيحة أسداها إليه
أحد الرجال في الغرب .

قال الأب الرئيس : اعلم ، يا بني ، أن هناك طرقاً
ثلاثة يمكن أن يسلك الإنسان إحداها للوصول إلى الحقيقة
التي يفتش عنها ، بحسب استعدادها .

قال الشاب : وما هي ؟

قال : هناك أولاً طريق العلم ، وهو منهج العلماء
الباحثين الذين يتقصّون الحقائق ، ويجاهدون بالتجارب
العلمية ، وبالقراءة والدرس والتفاوض مع العلماء لعلمهم
يصلون إلى الحقيقة التي يبحثون عنها .

والثاني هو طريق العبادة . فالعبادة في مكان هادئ
ساكن ، مع الصوم والرياضات الروحية ، يمكن أن يتوصل
بها العابد إلى الحكمة والمعرفة ، وهذا هو طريقنا نحن
الرهبان اعتزلنا العالم بالتمام ، وأقمنا في هذا الجبل ،
نمارس العبادة في سكون وصمت وتأمل مع إستبعاد جميع
الشواغل التي تستبّد بالنفس . وهذا الأمر ليس بسهل . لأنه
يحتاج إلى تدريب متواصل وتركيز الذهن وحصر الإنتباه ،
وإستبطان للنفس ، وإنسحاب بالذهن إلى الروحانيات ،
وشخص في القوة العليا التي تحكم هذا الكون ، فبعد زمن
يختلف من واحد إلى الآخر بحسب درجة إلتزامه
بالرياضات الروحية واستمراريته عليها ، يصل إلى
الإشراق الباطني ، أعني أن نفسه تضي من الداخل ، فتري

مالم تكن تراه من قبل ، وتنبثق فيها أنواع من المعارف الروحية . إنها مرحلة مضيئة مشرقة ، عندما يبلغها الإنسان يحصل على السلام الداخلى ، ثم السعادة الحقّة ، كما أنه يجد فى قلبه إتساعا يحتضن فيه كلّ الناس وكلّ الخليقة ، فلا يكره أحداً ، ولا يدين أحداً ، بل يمتلئ بالشفقة على كلّ الخليقة ، ويصير شبيهاً بالله فى مجيئه ورحمته ولطفه وطول أناته .

وأما الطريق الثالث فهو طريق الخدمة . فالإنسان اجتماعى بطبعه يجد سعادته ولذته فى الإجتماع بالناس . فإذا وضع فى قلبه أن لا يتفوق على نفسه ، وأن يتخلى عن أنانيته ويتقدم لخدمة غيره ، يخفف آلام المتعبين ، ويعين المعوقين وأصحاب العاهات والحاجات ، يكتشف أنه إنسان نافع ، وأن حياته لها قيمة ، وأنه قد استطاع أن يسعد غيره ، فيزداد شعوره بالسعادة . ومن خلال خدمته للآخرين وإحتكاكه بالمحتاجين يجد الإجابة على أسئلته ، ويعرف من هو ، ثم يعرف لماذا جاء إلى هذه الحياة فقد اكتشف الهدف من وجوده ، إذ صار صانعاً للخير شبيهاً بخالقه . ومن ثمّ يجد جزاءه فى إحساسه بالسعادة .

وحيث أنك شاب أتيت من بلاد الغرب خصيصاً ، فيمكنك أن تجربَ طريقنا ، وهى طريق العبادة . فهذا هو منهجنا فى البحث عن الحقيقة وعن السعادة .

فقال الشاب : نعم ، ليكن ، وها أنا أمامك ياسيدي
فعلمني .

قال الأب الرئيس سأعطيك مكانا منفرداً تمارس فيه
عبادتنا وطريقتنا . ثم أمره أن يخلع ملابسه الفرنجية
ويستبدلها بزي فضفاض متواضع ، وقاده إلى مكان هادئ ،
وأرشده إلى منهج الصلاة والتأمل مع الصوم والزهد في
أنواع الطعام ، ثم تركه حراً بعد أن زوده بإرشادات في
التنفس والتركيز الذهني والتأمل .

وبعد فترة من الوقت امتدت شهوراً وصل الشاب
إلى الإشراق الباطني ، فأضاءت نفسه وأحسّ بالسلام يملأ
قلبه ، وبالسعادة الباطنية تشرح صدره ، وعرف نفسه على
حقيقتها ، وفهم معنى وجوده ، واتسعت دائرة إدراكاته .
ومن فرط فرحه مضى يروى للأب الرئيس خبرته ، ومدى
ما وصل إليه من معرفة ، وهو بذلك سعيد سعادة تامة .

فقال له الأب الرئيس ، إني سعيد بما وصلت إليه
ياابني، وقد أشرقت نفسك وحصلت لك الإستتارة ، وعرفت
الجواب على أسئلتك . والآن أنصح لك بأن تجرب الطريق
الثالث طريق الخدمة . فإني أخشى أن تواصل طريقنا،
فيدركك الملل، فأنت غربي لاتناسبك حياة الرهبان المتعبدين
القابعين في الجبال . فانتظارك معنا لايفيدك الآن . ولذلك
انصح لك أن ترتدي ملابسك الفرنجية ، وتنزل إلى العالم ،
وتهب نفسك وحياتك لخدمة الآخرين . على أنني أوصيك

بأن تعمل على أن تسعد غيرك بأن تساعدك في تحقيق ما يحتاج إليه وما يريدك هو ، ولا تفرض رأيك على غيرك .
إنما اعمل لغيرك ما يرضيه لا ما يرضيك أنت .

وأطاع الشاب نصيحة الأب الرئيس وارتدى ملبسه الفرنجية ، ورجع إلى بلاده يخدم غيره ويعمل على إسعاد الآخرين بما يطلبونه وما يرضونه .

هذا هو الذى يفسر لنا الباعث الذى يملى على قلة من الناس ، وهم الرهبان ، أن يعتزلوا العالم ، وينطلقوا إلى الأماكن النائية فى الصحارى ، ويسكنون المغارات فى التلال وشقوق الأرض ، يقنعون بالقليل من الطعام ، ويحيون هناك فى الصحارى حياة جافة قاسية ، محرومين من كل متاع ومن كل لذة حسية ، يعانون الحرّ والبرد من دون أن يضطروهم أحد إلى ذلك ، وإنما باختيارهم ذهبوا ، وباختيارهم ارتضوا لأنفسهم هذا النوع من الحياة التى وصفها أحد المعارضين للرهبنة بأنها حياة لاتليق بغير الحيوانات العجماء .

هنا يجئ السؤال : لماذا تترك هذه القلة القليلة من الناس الحياة الرخية فى وسط الناس ، وفى المدن والقرى المأهولة ، ليعيشوا منفردين منعزلين ، ويرتضون باختيارهم أن ينطلقوا ليحيوا هذه الحياة القاسية ، مالم تكن تثيرهم على ذلك رغبة فى حياة للنفس أفضل ، تتحقق بها السعادة

الروحية ، والصفاء النفسى والسلام الباطنى ؟ وهذا هو
الجزاء المبارك الذى يطمحون إليه ، وهو الذى يعرضهم
عما يفقدونه بسبب عزلتهم ، من نعيم مآدى ولذة حسية فى
طعام لذيذ وشراب ولباس وإمتاع للجسد . وقد وصفهم
الوحى الإلهى على فم القديس بولس الرسول فى رسالته إلى
العبرانيين (تانهين فى البرارى والجبال والمغاور وكهوف
الأرض) (العبرانيين ١١ : ٣٨) ، وانظر واقرأ عن رجال من
العهد القديم عاشوا رهبانا فى الجبال من أمثال إيليا النبى ،
وألشع (١ الملوك ١٨ : ٤) ، (١٩ : ٩) فضلاً عن يوحنا
المعمدان ، وقد قال عنه الإنجيل (وكان يقيم فى البرارى
إلى يوم ظهوره لإسرائيل) (لوقا ١ : ٨٠) ، (متى ٣ : ١) ،
(١١ : ٧) .

* * *

هؤلاء بشر مثلنا، قلة قليلة ، نعم ، لكنهم يريدون أن
يبلغوا إلى الحكمة الحقيقية . إنهم يرون الناس من حولهم
لاهون عن أنفسهم ولاهون عن الحكمة . يأكلون ويشربون
ويلبسون ، ويتسابقون ويتنافسون ويتشاجرون ويتحاربون . .
وفى سبيل لقمة العيش يتقاتلون ، وكل سعيهم لكى يحصلوا
على ما يأكلون وما يشربون وما يلبسون وما يسكنون . -
مشغولون بكل هذا ولكن عن أنفسهم غافلون . .
أما الحكماء . . فزهدوا فى كل ذلك ووجدوه (باطل
الأباطيل كل شئ باطل) (٠٠) (لاتشبع العين من النظر ،

ولاتمتلئ الأذن من السماع) (أنا الجامعة ملكت على
إسرائيل بأورشليم... رأيت جميع الأعمال التي عملت
تحت الشمس ، فإذا الكل باطل وقبض الريح) (الجامعة ١ :
٢ ، ٨ ، ١٢ ، ١٤) ، (١٢ : ٨) .

وآمنوا بقول المسيح له المجد (أقول لكم : لا يشغلكم
الهمّ لأجل حياتكم بشأن ما عساكم أن تأكلوا أو تشربوا ، أو
لأجل جسدكم بشأن ما عساكم أن تلبسوا . أليست الحياة أهمّ
من الطعام ، والجسد أهمّ من اللباس؟... فلا تهتموا إذن
قائلين ماذا عسانا أن نأكل أو ماذا عسانا أن نشرب أو ماذا
عسانا أن نلبس . فهذا كله يسعى في طلبه الوثنيون ،...
لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه) (متى ٦ : ٢٥-٣٣) ،
(لوقا ١٢ : ٢٢-٣١) .

من أكون أنا ؟

أدرك الحكماء والفهاء ومحبو الحكمة أن الأولى
بإهتمامهم هو أرواحهم ومصيرهم فى الحياة ، وبعد الممات .
قالوا : لماذا نتشاغل عن أنفسنا بأمر مهمما بلغ من
أهميتها فى الدنيا ، لكنها زائلة (لأن هيئة هذا العالم فى
زوال) (١٠١ كورنثوس ٧ : ٣١) ؟ ولماذا لانهتم بالأحرى
بما هو أبقى وأدوم وألزم لحياتنا الأبدية ؟

ولايستطيع الباحث عن الحكمة أن يتجنب أولا
سؤاله عن حقيقته وهويته . إنه لايمكنه الهرب من هذا
السؤال البالغ الأهمية ، السؤال الأول فى ترتيب الأولوية
الذى تبحث عنه نفس الحكيم

من أكون أنا ؟

لقد قُذِف بى إلى هذا العالم بغير إرادتى . وُجِدْتُ
فى الحياة من أب ومن أم .
ولكن ترى من أنا ؟

إن أبى وأمى اللذين ولدانى لايعلمان قبل أن يلدانى
من أنا وماذا سأكون ، لايعلمان إذا كنت سأكون ذكرا أو
أنثى ، ولايعلمان إذا كنت سأكون خيرا أو شريرا ، صالحا
أو طالحا ، لايعلمان إذا كنت سليما أو مريضا ، سويا أو
مشوها .

..... هما أصل وجودى ، ومع ذلك لا يعلمان عنى
على الحقيقة من أنا ، وما هو كيانى ، وما هو جوهر إنيتى ؟
ليس هذا السؤال تافهاً ، وليس مجنوناً ، إنه سؤال
يفتقر إلى جواب حقيقى .

* * *

فى أحوال نرى إنساناً بالغاً أصابته صدمة نفسية أو
عصبية فنسى من هو ؟ يسألونه عن اسمه فيقول : لا أعلم .
ويعيدون عليه السؤال ، ويعيد على نفسه السؤال ويشحذ
ذاكرته ، فلا يعرف من هو ، وكأنه قد انقطعت كل صلة
بينه وبين الإنسان الذى عرفه الناس باسمه ، فيسمعون منه
الجواب : إنه لا يعرف من هو ، فيذهلون ويتعجبون . ومن
الناس من لا يصدق أنه قد نسى فعلاً من هو ، فيقولون إنه
يكذب أو يخفى نفسه لأمر ما .

ومن الناس من يقول إنه أصابته لوثة عقلية أو
جنون ، كيف لا يعرف من هو ؟ أو كيف يجيب على من
يسأله عن هويته فيقول : لا أعلم ؟ .

ومن الناس من يُصاب بتصلب شرايين المخ ،
فينسى كل شئ حتى نفسه ويسألونه عن نفسه من هو ؟ فلا
يعرف عن نفسه شيئاً ، ويسألونه عن اسمه فيقول : لا أعلم .
وكل من الإثنين : المصاب بصدمة عصبية أو
نفسية ، والمصاب بتصلب شرايين المخ ، صادق عندما
يسألونه عن نفسه فيقول لا أعلم من أنا ؟

وما أكثر ما يحدث بيننا ، من هؤلاء وأولئك : من يسألونه عن هويته وعن حقيقته ، فلا يعرف من هو .
وحتى الذي يسألونه عن اسمه فيجيب إجابة مُرضية ويذكر اسمه كما تسمّى به منذ طفولته ، فهل إجابته دليل قطعي على أنه عرف من هو على الحقيقة ؟ إنه يردد الإسم الذي أطلقوه عليه منذ ميلاده ، وعُرف به بين الناس . إنه يردد ما هو معروف به بين الناس . ولكنه هل يعرف حقا من هو ؟ .

من أنا ؟

ويبقى مع ذلك السؤال قائماً: من أنا ؟ هل أنا كائن من بين جملة الحيوانات التي خلقها الله ، تتنفس وتتغذى وتنمو وتتكاثر، وتحس باللذة والألم ، وتتحرك في الأرض ، أم أنا كائن متميز عن سائر الحيوانات والحشرات بالعقل والحكمة والفهم والقدرة على الخلق والإبداع والإبتكار، بفضل الروح العاقلة الناطقة .

وإذا كان الأمر كذلك ، وأنا الذي خلقني الله ربي على صورته ومثاله (التكوين ١ : ٢٦ ، ٢٧) وجعلني سيّدا متسلطاً على جميع الكائنات دانيها وعاليها ، وقال الرب خالقي : (لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على سمك البحر وعلى طير السماء ، وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض) . وقال لأدم أبينا ولنسله فيه (املاوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض) (التكوين ١ : ٢٦ - ٢٨) .

فأنا الإنسان إذن كائن خُلِقْتُ إليها صغيراً على صورة الإله الأعظم ومثاله ، ولذلك فلي كرامتي كإنسان ، وهي من كرامة سيّدي وخالقي . قال الله (ولتكن خشيتكم ورهبتم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر . إنها مسلمة إلى أيديكم) (التكوين ٩ : ٢ ، ٣) . فلا يليق بي وبإنسانيتي أن

تستعبدنى رغبة ما أو شهوة ما ، إننى سيّد لا عبد ، أنا عبد لسيدى الواحد الذى خلقنى ، ولكنى لست عبداً لشهوة ما ولا رغبة ما ، إنى بروحى العاقلة يجب أن أحكم كل شهوة تجذبنى إلى ما هو دون طبيعتى مما يليق بالحيوانات العجمّاءات . إنى آخذ من الطعام والشراب واللباس ما أنا بحاجة إليه لقيام جسدى ، ولكن بيدي اللجام الذى أزمّ به على دابتي ، التى هى جسدى ، فأخذ منها ما أريد عندما أريد ، وأعف عنها عندما أريد ، ولن أدع اللجام يفلت من يدي حتى لاتسوقنى شهواتى أو تدفعنى غرائزى إلى ما لاترضاه كرامة روحى السامية المخلوقة على صورة الله ومثاله .

إننى أذكر ولا أنسى قول سيدى ومخلصى (إن كل من يقترف الخطيئة هو عبد للخطيئة ، والعبد لايمكث فى البيت إلى الأبد . وأما الابن فيمكث إلى الأبد) (يوحنا ٨ : ٣٤ ، ٣٥) .

إذا عرفت من أنا ، فلن أمتهن كرامتى بأن أذلها لشخص ما ، ليخضعنى إلى مايريد هو ضدا لإرادة سيّدى . إنى احترم كل إنسان أجد فيه الفضيلة بصورة لا أجدها فى نفسى . وأحنى هامتى خضوعا لمن يعلونى سناً أو مركزاً ، فأنا مطالب بشريعة السماء أن (أعطى لكل واحد حقه)
المهابة لمن له المهابة والإكرام لمن له الإكرام (رومية ١٣ : ٧) ، ولكنى لا أتتكبر لمبادئى ومبادئ ربي

وسيدى فى سبيل إرضاء إنسان يعطونى مركزا أو منصبا لو
 أنه دعانى لإنكار مبادئى أو مبادئ دينى وإيمانى. إننى
 أطيعه كرنيسى فى كل ما يأمرنى به طالما أن ما يأمرنى به
 يتمشى ولا يتعارض مع أوامر سيدى الواحد، سيد السیادات،
 ورب الأرباب. أما إذا أمرنى أو طالبنى بأن أتتكر لمبادئ
 سيدى الأكبر، فإننى أقبل الموت شهيدا لطاعة سيدى
 الأعظم، ولن أنسى حينئذ كرامتى التى هى من كرامة سيدى
 وخالقى .

* * *

إنى من أجل السلام والمحبة أقبل أن أتنازل عن كل
 مالى فى الأرض فى سبيل خير أخى الإنسان . ولكنى لن
 أقبل التنازل عن حق من حقوق الله خالقى . فأنا أعرف من
 أنا . . أنا الإنسان المخلوق على صورة خالقه . فحرام
 على أن أشوه صورة سيدى وخالقى ، وأتلفها وأفسدها .
 (فسيفسدى الله) . (١. كورنثوس ٣ : ١٧) عندما أرجع
 إليه.

والسؤال الثانى : لماذا أنا هنا فى هذه الحياة الدنيا ؟

الإنسان الذى يضيع منه هدف حياته يدركه الملل والتعب، وترهقه الحياة النمطية التى لا هدف لها ولا غاية منها.

يصحو الإنسان فى الصباح ، يتناول إفطاره ويرتدى ملابسه للخروج ، ويمضى ويسعى لكسب قوته وقوت عياله ، وفى عمله يلتقى بوجوه ، يلتقى بها عادة كل يوم، ويعود من عمله إلى بيته ، يأكل ثم يستريح بعض الوقت وقد لا يستريح ، ويستأنف عمله بعينه أو عملاً آخر يُدر عليه مزيداً من الرزق ، ويعود إلى بيته ، وينام سحابة ليله، ثم ينهض فى اليوم التالى ليكرر ما فعله بالأمس . وإذا كانت حياة الإنسان فى الماضى كان يعثورها ، على نوع ما، بعض التغيير، بيد أن الإنسان المعاصر، فى عصر الآلة، ضاقت أمامه فرص التغيير والمفاجآت وصارت حياته رتيبة ، منتظمة بالساعة والدقيقة والثانية . كل عمل محسوب زمنه ، متى يبدأ ومتى ينتهى . وهو هو بعينه . يخرج فى وقت محكوم بالدقيقة والثانية ، ويعود من عمله فى وقت محكوم بالدقيقة والثانية ، ويحيا فى زمن صار كل عمل مقسماً إلى أجزاء ، وقد يكون على العامل مثلاً أن يقضى ساعات العمل فى نوع واحد من العمل ، أو فى جزئية تخصص فيها، ولايحيد عنها إلى جزئية أخرى تدخل

في إختصاص مسئول آخر... وهذا العمل الروتيني
يتكرر كل يوم...

مع هذه الحياة النمطية المتكررة يحدث الملل والسأم
والضجر. وهنا يسأل الإنسان نفسه : هل هذه هي حياتي ؟
هل أنا خلقت من أجل هذا العمل النمطي ؟ إنى أشعر بفراغ
في نفسي... وأسأل نفسي : هل أنا وجدت في هذه الحياة
الدنيا لكي أكل وأشرب وأعول أسرة ثم أموت ؟ أليس من
هدف أسمى يتمشى مع إنسانيتي ؟ ما الفرق بيني وبين الآلة
الصماء ؟ ما الفرق بيني وبين الدواب والمواشي والحيوانات
العجماءات ؟

بالشقاء الإنسان عندما يفقد الهدف من وجوده في
هذه الحياة الدنيا.

إنّ الدابة والحشرة تصير عندئذ أفضل منه ، لأنها
لاتحس بما يحسه الإنسان من ضياع عندما يفقد هدف
وجوده .

إن حياته تسمى بلا معنى .

ويصير مثله مثل السفينة التي فقدت بوصلتها ،
فتتخبط ، وتفقد طريقها ، إنه يمسي تائها يبحث عن مخرج أو
غاية ينتهي إليها .

وكانه مع بنى إسرائيل في برية سيناء في صحراء
التيه (سفر العدد ٣٢ : ١٣) يسير في طريق يظنه أنه
سيؤدى به إلى مايريد ، وبعد أن يصل في الطريق إلى

نهايته يجده مسدوداً فيعود من حيث بدأ ، ليبدأ من جديد
طريقاً آخر، يعود بعده نادماً لأنه أيضاً لم يبلغ به إلى هدف!
أما الإنسان الذي عَرَفَ له في حياته هدفاً فما
أسعده!

إنه يناضل ويكافح ويعمل من أجل هذا الهدف، ولن
يدركه الملل والسأم والضجر، التي تدرك من ليس في حياته
هدف.

ثم إنه تزداد عنده قيمة الوقت ، وأهميته ، فالوقت
سلاحه يشهره ضد الكسل والتراخي والملل ، وبه ينتصر
ويتغلب على ما يعترض حياته من صعوبات فمادام يعلم أن
لحياته هدفاً ، فهو سائر نحو هدفه لا يبالي بالعقبات حتى
يصل .

يقول القديس أوغسطينوس في إعرافاته (يا إلهي ،
إنَّ النفس تظلُّ قلقاً ، ولن تجد الراحة إلا فيك) .
هنا الفرق الواضح الواسع بين المؤمن والملحد .
المؤمن هدفه واضح عنده . إنه يؤمن بأن الله خالقه ، وقد
خلقه وأرسله إلى العالم لمهمة سامية ، أن يعمل مع خالقه ،
ولحساب سيّده ، ينشر الخير، والحق والجمال ، يعمل
ويخلق ويبتكر ويبدع بما وهبه الله من عقل وقدرات على
صورة خالقه ومثاله . وقدراته هي وزناته التي أرسله بها
سيده ليتاجر بها ويربح ثم يعود إلى خالقه بوزناته وأرباحها
فينال عن عمله رضاه وجزاءه المبارك ، ويسعد بدخوله في

حضرته ، ومعاينة جلاله ، وبما يضيفه عليه سيده في ملكوته من كرامة ، بعد أن يسمع من جلاله رأيه السعيد فيه (أحسنتَ أيها العبد الصالح والأمين . بما أنك كنتَ أميناً في القليل سأقيمك على الكثير . ادخل إلى فرح سيدك) (متى ٢٥ : ٢١ - ٢٣) .

ويقول الوحي الإلهي على فم القديس بولس الرسول (لأننا نحن عمله ، مخلوقين في المسيح يسوع للأعمال الصالحة التي سبق الله فأعدها لنسلك فيها) (أفسس ٢ : ١٠) .

ثم يقول (أسعى لعلى أدرك الذي لأجله أدركني أيضا المسيح يسوع . . . أسعى نحو الغرض لأجل جعله دعوة الله العليا في المسيح يسوع) (فيلبي ٣ : ١٢ - ١٤) .
فما أسعد الإنسان الذي يعلم ويؤمن أنه جاء إلى الحياة الدنيا مرسلاً من الله ليحقق هدفاً خلقه الله من أجله . إنه صاحب رسالة . ورسالته في الحياة أن يحقق الخير في الدنيا لنفسه وللأغيار ، وأن يجاهد ويسعى لإنجاز رسالته ومهمته ، ولا يضيع وقته في تفاهات وفي أمور صغيرة ليس يليق به ، وبشرف مهمته ورسالته الخطيرة أن يصرف همه فيها ، متغافلاً عن رسالته العليا ، الخليفة به .

فإذا أنجز مهمته وأتم رسالته في حياته ، مضى بالموت سعيداً ، يحمل أعماله الصالحة بين يديه ، فينال من سيده الجعالة والمكافأة ، لأنه عرف الهدف من وجوده في

الدنيا ، وحقق الهدف الذى من أجله أرسله سيّده إلى الأرض.

وهنا الجواب على السؤال الثالث والأخير :

وماذا بعد هذا ؟

يقول المسيح له المجد :

(فمن تراه ذلك العبد الأمين الحكيم الذى يقيمه سيّده على عبيده فيعطيهم طعامهم فى حينه ، ما أسعد ذلك العبد الذى متى جاء سيّده وجده يفعل هكذا . الحق أقول لكم إنه يقيمه على كل أمواله) (متى ٢٤ : ٤٥ - ٤٧) ، (لوقا ١٢ : ٤٢ - ٤٤) ، (٢٢ : ٢٩) ، (سفر الرؤيا ١٦ : ١٥) .

(أحسنتَ أيها العبد الصالح والأمين . بما أنك كنتَ أميناً فى القليل سأقيمك على الكثير) (متى ٢٥ : ٢١ ، ٢٢) .
وقال أيضا المسيح له المجد (إنى أقول لكم : إنَّ كلَّ من له سيّعطى) (لوقا ١٩ : ٢٦) (فإن من عنده يُعطى ويُزاد) (متى ١٣ : ١٢) ، (٢٥ : ٢٩) ، (مرقس ٤ : ٢٥) ، (لوقا ١٨ : ٨) . والمعنى أنّ من له عمل ، ومن عنده ثمر ، يُكافأ بأن تزداد له وزناته ومسئوليّاته . فمن ربحت وزنته عشر وزنات ، قال له سيّد الكل (أحسنتَ أيها العبد الصالح ، وإذ كنتَ أميناً فى القليل ، فليكن لك السلطان على عشر مدن) (لوقا ١٩ : ١٦ ، ١٧) .

وإذن فمن يُنجز مهمته ، ويتم مسئوليته ، بأمانة وإخلاص ، لا يكافأ فقط بالجزاء الصالح المبارك بدخوله إلى فرح سيّده ، بل إن سيّده يرفعه إلى مسئوليات أخرى أكبر وقيمه على أعمال أخرى أعظم منها ، إذ أنه بعمله قد أثبت فعاليته في العمل ، وكفاءته وجدارته في خدمة سيده في ملكوته .

وهذا هو المفهوم أيضا من قول الوحي الإلهي على فم القديس يوحنا الرسول :
(أيها الأحباء ، نحن الآن أبناء الله ، ولم ينكشف لنا بعد ماذا سنكون ، غير أننا نعلم أنه متى ظهر سنصير مثله ، لأننا سنراه كما هو) (١ . يوحنا ٣ : ٢) .

ومن هذه النصوص المقدسة الإلهية تتضح لنا هذه الحقيقة الجميلة المشجعة أنّ طريق الإنسان إلى الترقى والصعود في مراقى الكمال ، طريق مفتوح إلى الأبد ، وإلى ما لانهاية .

إن القداسة في حياة الأبرار والصادقين هي درجة المقبول في ملكوت الله (القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب) (العبرانيين ١٢ : ١٤) . على أنّ القديسين في الملكوت لن يتوقف نموهم في النعمة والمعرفة . وإنما هم مدعوون إلى الترقى إلى (إنسان كامل ، إلى قياس قامة ملء المسيح) (أفسس ٤ : ١٣) في (العرض والطول والعمق والعلو... إلى كل ملء الله) (أفسس ٣ : ١٨ ، ١٩) .

